الفصل الثاني
الدوافع الحقيقية لمشاركة اليهود
في حركة الاستشراق

obeikandl.com

تمهيد:

من اللافت للانتباه مشاركة اليهود المكثفة في حركة الاستشراق، وجهودهم النشطة في التعرف علي الفكر الإسلامي، ودراساتهم الموسعة حول تراث الحضارة العربية الإسلامية، ودورهم الملحوظ في التأليف والتحقيق والترجمة والتنقيب، وقيامهم بنصيب وافر في نشر المخطوطات بعامة، واهتمامهم بالدراسات القرآنية وسيرة الرسول ﷺ، والفقه والعقائد بخاصة.

وإذا ذهبنا نتأمل في هذه القضية ونضعها موضع الدراسة والتحليل والتعليل، ونستكنه سر إقبال اليهود علي المشاركة القوية في الدراسات الاستشراقية لاسيما المتعلقة بتراث الحضارة العربية الإسلامية؛ نرى أن دوافع المستشرقين اليهود التي تحركهم وتوجه سلوكهم إلى تحقيق أهداف متعددة وغايات واسعة، تكاد تتطابق مع أهداف المستشرقين، مع فارق هين واختلاف بسيط، ونستطيع أن نجمل هذه الدوافع في الآتي: [١]

الدوافع النفسية و الدينية، و العلمية والسياسية، والتاريخية، والمادية.

وسوف نتوقف أمام هذه الدوافع بقدر من الشرح والتحليل والمناقشة.

أولا: الدوافع النفسية:

١- عاش اليهود في أوربا عيشة مزرية بائسة، وكانت صورة اليهودي في وجدان الأوربي ومخيلته تعني الخداع والمكر والنصب والسرقة والاحتيال والغدر، والبخل والربا والقذارة والدناءة [٢]

ولعل مسرحية تاجر البندقية لشكسبير تعطي فكرة عن هذه الصورة القاتمة، وكان سلوك اليهود يؤكد هذه المعاني لأنهم كانوا يعيشون في عزلة بعيدا عن حركة المجتمع في

---

(١) الدافع قوة محركة موجهة في آن واحد للإنسان ، فهو يثير السلوك إلى غاية أو هدف يسعى إلى تحقيقه ؛ فالدافع استعداد ذو وجهين وجه داخلي محرك ، ووجه خارجي هو الغاية آو الهدف الذي يتجه إليه السلوك الإنساني الصادر عن الدافع مثل الأكل والشرب والحصول على المركز الاجتماعي (أصول علم النفس ص٨٠) .

(٢) جوستاف لوبون : اليهود في الحضارات القديمة ، ترجمة عادل زعيتر .

حارات تغلق عليهم، منطويين على ذواتهم منغلقين على أنفسهم مستقلين بعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم وحتى دينهم، وهي ما أطلق عليه في أوربا «الجيتو».هذا من ناحية؛

ومن ناحية أخري اتسمت حياتهم بطابع التشتت والترحال والاغتراب حتى داخل الوطن الواحد وأطلق عليهم اسم «اليهودي التائه»، فمن خلال استقراء سيرة حياة معظمهم، مما أسلفنا ذكره - يلاحظ الدارس أنهم عاشوا مشتتين ومتفرقين بين دول أوربا؛ فالأسرة اليهودية لا تحل في دولة، إلا ورحلت عنها بعد فترة قصرت أو طالت إلي دولة أخري، بسبب الكراهية المتأصلة في نفوس الأوربيين تجاه سلوكياتهم المنفرة، وقلقهم الدائم و هاجس الخوف المتغلغل في أعماقهم ومن كل المحيطين بهم ومن كل شيء، والشك المستمر في نوايا الآخرين تجاههم؛ فمثلا، دافيد سنتلانا (١٨٥٥-١٩٣١) ولد في تونس من أسرة أصلها أسبانية، ويحمل الجنسية الإنجليزية، ثم حصل علي الجنسية الإيطالية.

- جرونباوم(١٩٠٩-١٩٧٢) نمساوي الأصل وتعلم في ألمانيا وهاجر إلي أمريكا.

- مارتن بلسنر (١٩٠٠ -١٩٧٣) ألماني هاجر إلي فلسطين.

- ليو اشتراوس(١٨٩٩-١٩٧٣) ولد في ألمانيا وهاجر إلي أمريكا.

- وروبير برنشفيج (١٩٠١-١٩٩٠) أسرته من ألمانيا ونفي إلي فرنسا. ومعظم المستشرقين الذين تناولنا سيرتهم مروا بهذه الذكريات المؤلمة و الخبرات المقلقة والمواقف المزعجة.

٢- هذه التجارب المروعة و الخبرات المؤلمة و الأحوال المأساوية انعكست علي نفسية اليهودي، وانغرست في أعماقه وأصبح يشعر بالاغتراب داخل الوطن الذي ولد فيه، ويعاني قدرا كبيرا من التمزق والحيرة والتردد والقلق، وفاض شعوره بالشك فيما حوله وفي الواقع الذي يعيش فيه وفيما يفكر فيه، كأن الشيطان الماكر الذي افترضه ديكارت (ت١٦٥٠)أصبح واقعا في تفكير اليهودي وموجود في دنياه، افتقد الشعور بالطمأنينة والأمان، وغاب عنه الإحساس بالانتماء إلي الوطن، فترسب في أعماقه «مركب النقص».

هذه المشاعر المؤلمة لا يقدر آثارها إلا من عاناها، وكابد سهادها، ومر بالتجربة وعاش لحظاتها، فهي تجارب ذاتية قاسية مثل تجربة الصوفي وتجربة العشاق.

٣- مما سبق نري أن المستشرق اليهودي أراد أن يخفي هذا النقص ويمحوه من الوجود، بل وينتصر علي هذه الخواطر المزعجة والتجارب المأساوية، بالتعويض الزائد،[(١)] ليثبت لذاته وللآخرين قدرته علي المشاركة الإيجابية، وأنه عضو فعال داخل المجتمع، ليس عطل من المواهب والقدرات والملكات، وأيضا ليس عبء على أحد، ويستخرج من أعماقه أفضل ما في الإنسان من مكارم وخيرات. وأنه مثل باقي البشر عنده طموح وإرادة ومن الممكن أن يقدم للمجتمع أفضل ما عنده، وما يخدم المحيطين به حتى يغيروا نظرتهم له، ويضموه إلى محيطهم الاجتماعي.

فهو يستطيع أن يبدع في المجال الذي تخصص فيه، ليس هذا فحسب بل ويتفوق فيه ويبتكر ويطرح أفكارا جديدة وطريفة، وفي الوقت نفسه يتحرر من موقفه السلبي ونوازع نفسه التي تجذبه إلى دائرة الظل الرمادية، و يحاول أن يمحو النظرة الدونية التي ينظر إليها المجتمع .ويؤكد كينونته ووجوده المادي والمعنوي.

ثانيا : الدوافع الدينية :

١ – كان موقف اليهود من الرسولﷺ موقفا عدائيا غريبا ليس له ما يسوغه، لاسيما وقد اعترف الإسلام بجميع الديانات السابقة عليه، ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد مد الرسول ﷺ يد الود و التعاون والمحبة مع اليهود الذين كانوا يعيشون معه في المدينة لاسيما وهم أهل كتاب وعقد معهم معاهدات سلمية يناصرهم وينصرونه، ويكونوا يدا واحدة على أعدائهم، إلا أنهم خانوا العهد كدأبهم عبر العصور، وتحالفوا مع

(١) التعويض الزائد: كل محاولة لإخفاء النقص أو التغلب عليه ، وكثيرا ما يكون التعويض سترا للنقص لا التماسا للقوة وإصلاح العيب .احمد عزت راجح: أصول علم النفس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩، ص٥١٠.

المشركين والكفار، وكان أن أخرجهم من المدينة وطردهم شر طرده، وقد تتابعت آيات القرآن تتحدث عن خصالهم المعوجة وتفضح مؤامراتهم، وتطاولهم علي الله وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلها، وعبادتهم للعجل، وقولهم إن الله فقير ويده مغلولة، وقتلهم الأنبياء، ورفضهم الإيمان برسالة السيد المسيح، وعدم انصياعهم لأوامره وتعاليمه ونصائحه ومحاولتهم الغدر به، وتحريض الحاكم الروماني للقبض عليه وقتله، وتقولهم علي مريم أم المسيح بالأقوال الشنيعة، ورميها بالتهم، وتحريفهم كلام الله وإظهار بعضه وإخفاء بعضه الآخر، أضف إلي ذلك نقضهم للعهود، ومسارعتهم لاقتراف الإثم والعدوان، وتمرسهم علي النفاق، وسعيهم في إشعال الحروب بين الأمم وبذر الشرور والفساد والإفساد في الأرض.

وبالجملة كشف القرآن عن خبيئة أنفسهم وأظهر مكنون ضمائرهم، وعدد معايبهم ومثالبهم وذكر أخبارهم مع أنبياء بني إسرائيل، وشرح دورهم في الفتن وتدبير المؤامرات، وشهر بهم تشهيرا نقرأه صباح مساء، وعدد الجرائم التي ارتكبوها عبر التاريخ بقول بليغ واضح لا لبس فيه ولا تأويل. ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا....**﴾ [المائدة: ٨٢] ثم مضي يشرح عاقبة أفعالهم ومنقلب جرائمهم ومصير مكائدهم فقال سبحانه ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٦٠].

٢- لاشك أن هذه الصورة المخزية التي عرضها القرآن لهم وهذا التوصيف البشع، أضرم قلوب اليهود حقدا علي القرآن وكراهية عاصفة للرسول ﷺ والإسلام والمسلمين والدنيا قاطبة، وملأت نفوسهم مرارة، وشحنت عقولهم بروح الانتقام من كل ما يمت إلي الحضارة العربية الإسلامية بصلة.

لذلك سارعوا إلي ولوج باب الاستشراق، تحركهم عوامل شعورية ولاشعورية، وعقدة الانتقام من هذا الدين غائرة في أعماقهم، لذلك سعوا بكل طاقتهم تشويه صورة الإسلام والرسول ﷺ علي النحو الذي رأيناه عند جولد تسيهر في هجومه على مفردات

القرآن ومزاعمه البائسة في أن آياته مستمدة من نصوص التوراة، و دافيد سانتلانا في هجومه على الفقه الإسلامي ومزاعمه الكاذبة في أنه أخذ قواعده من القانون الروماني وغيرهم كثير.

٣- حاول المستشرقون اليهود بكل عبقريتهم وذكائهم، وسعة إطلاعهم وإجادتهم للغات وخبرتهم بعادات الشعوب، وسياحتهم في الكرة الأرضية [(١)]، أن يستبسلوا في الدفاع عن دينهم وتصوراتهم العقائدية وفلسفتهم الحياتية، وتاريخهم وتراثهم وتبرئتهم من التهم التي ألصقت بهم عبر التاريخ القديم والحديث.هذه نقطة، والنقطة الثانية؛ رسم صورة باهرة لمساهمات علماء اليهود في بناء الحضارة العربية الإسلامية، كأنهم هم البناة الأوائل والأواخر، في كافة الميادين؛ الدين والفلسفة والطب والصيدلة والترجمة، وتكبير هذه الصورة ونفخ الروح فيها، حتى تصبح حقيقة تجري على الأرض وتصبح قضية مسلما بها من قبل المؤرخين.

٤- لما كان القرآن هو محور الحضارة العربية الإسلامية وينبوعها الفياض، ويعد المكون الأساس لها؛ فهو مصدر لعلماء الفقه يستنبطون منه قواعدهم ومقاصد الشريعة، ومرشد لأهل الحديث، ويعول عليه علماء الكلام في إثبات قضاياهم العقائدية، ويعتمد عليه الفلاسفة في تصوراتهم وأدلتهم وبراهينهم، ويستند إليه الصوفية في أحوالهم ومقاماتهم ومواجيدهم وطرائقهم بل وكراماتهم المزعومة أيضا، بسبب هذه الأهمية القصوى التي يحتلها القرآن في وجدان المسلمين وقلوبهم وعقولهم، تجرد معظم جهود المستشرقين اليهود في توجيه معاول الهدم وسهام النقد، ونيران الحقد حول آياته المحكمات، فقاموا بترجمته، ثم عكفوا على نقد الأفكار والروايات والقصص التي وردت فيه، وأثاروا الشك حول آياته، وعقدوا المقارنات المطولة بين آياته و نصوص العهد القديم، ثم صاحوا بصوت جهوري بائس: لقد اقتبس محمد قرآنه من التوراة، وأخذ عظاته وقصصه من بني إسرائيل، مع أن المقابلات والمشابهات والمقارنات بين النصوص

(١) إن نقدنا لموقف المستشرقين اليهود، لا يمنعنا أن نعترف بمميزاتهم العلمية وتفوقهم في مجال البحث ، وصبرهم في التنقيب عن المخطوطات وفهرستها.

خداعة للغاية، وليس هناك ضرورة منطقية تؤكد أن اللاحق اقتبس من السابق ونحن بصدد نصوص دينية نؤمن أنها وحي يوحي من رب العالمين، ثم إن هذه الأحداث وقعت في التاريخ، وقد أوحي بها سبحانه لرسله الكرام من أجل العظة والعبرة، والمواساة والتسرية عنهم والإيحاء إليهم بأن ما يعانونه من عنت المعارضين وقسوة المتمردين وشدة الرافضين لنور الله حدث في الأمم السابقة وقد تعرضوا لبلاء أشد من ذلك.

ولعل هذا ما رأيناه في مقولات جولد تسيهر، وحربه المستمرة على القرآن، ثم انضم إليه طابور طويل من علماء الاستشراق اليهود؛ منهم هورفيتز وهيرشفليد، ولم ينقطع سيلهم حتى اليوم.

٥- ركز الهجوم على سيرة الرسول ﷺ وكل ما يتعلق بها من قريب أو بعيد، لقد نقبوا عن كل حادثة لا تستسيغها أفهامهم، أو لا تتفق مع عاداتهم وأفكارهم إلا وأمطروها بحجارة من سجيل؛ هذا ما رأيناه في هجومهم علي تعدد زوجات النبي، (، مع أن تعدد الزوجات مقرر في كل الديانات السابقة) [1] وأثاروا غبار الشك وضباب الشبهات حول حادثة الإفك، وذهب بهم الخيال الجامح كل طريق، وزواجه من زينب بنت جحش أصبحت قصة من قصص الغرام المشبوب تنسج حولها الأساطير، وكذلك قصة الغرانيق التي عدوها نوع من المساومة بين الرسول ﷺ والكفار وأنه تنازل مؤقتا عن بعض مبادئه وإيمانه بالتوحيد، علاوة على ذلك اتهموه بنقض العهود مع اليهود في المدينة، وأنه ﷺ حينما زاد أنصاره وقويت شوكته انقلب عليهم وشرد بهم، لقد نقبوا في حياته ليس من أجل الفهم والدراسة ولكن لهدم الأخلاق المثالية والمبادئ السامية التي اتسمت بها سيرته العطرة وهيهات.

وفي هذا السياق، تأتي كتابات أمثال؛ جوستاف فايل الذي كتب سيرة عن الرسول متحاملا عليه تحاملا شديدا، وهرشفلد باحث في الإسلام غاية في التعصب وعنوان رسالته «العناصر اليهودية في القرآن» وأبراهام جيجر في كتابه ماذا أخذ محمد من اليهود؟

(١) يقول لوبون : لا أري سببا لجعل مبدأ الزوجات الشرعي عند الشرقيين ، أدنى مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السري عند الأوربيين .(حضارة العرب ص ٣٩٨).

٦- بعد الهجوم على القرآن والرسول ﷺ، يأتي الدور على التاريخ الإسلامي الذي لم يكن بمنجاة من عبثهم الفكري وتصوراتهم المريضة، فراحوا يهذون ويلفقون الحكايات ويستعينون بالأساطير، والخيال الجامح لإفساد ما يمكن إفساده، يهدمون ما يقدرون علي هدمه، ويحرفون ما يستطيعون تحريفه، ويثيرون الضباب حول شخصياته العظيمة وزعمائه المخلصين. ويتوقفون أمام الحوادث الشاذة، والحروب الداخلية التي جرت بين المسلمين، أي كشف الجانب المظلم في التاريخ الإسلامي، وبعثه من أكفانه، وينفخون الروح فيه، كأننا أمام قضية وقعت بالأمس، وفي الوقت نفسه التركيز على نشر بعض الأفكار الشاذة التي قال بها بعض مفكري الإسلام، وتحقيق تراثهم ومناقشة أفكارهم، ليس من أجل الرد عليهم، ولكن من أجل تزيين أفكارهم، وهذا ما قام به باول كراوس، كما ألمعنا إليه سابقا.

كذلك رأينا تعاطف جولد تسيهر مع المذاهب والفرق الشاذة التي ظهرت قديما وحديثا وقصدت مباشرة تقويض أركان الإسلام من الداخل؛، مثل اليزيدية والبابية والبهائية.

وما زال برنارد لويس يواصل هجومه على كل ما يتعلق بالحضارة العربية الإسلامية، يتنقل هنا وهناك من أمريكا إلى أوربا، مثل عبد الله بن أبي المنافق، يبث سمومه وأفكاره المناوئة للعرب، ومساندته الواضحة للكيان الإسرائيلي بشكل فج وأسلوب مستفز وموقف عدائي.

خلاصة القول حينما دخل المستشرقون اليهود ميدان الاستشراق، كان يخايل أذهانهم فكرة الانتقام من الدين الإسلامي، والتنفيس عما يعتمل في قلوبهم، وبذل ما في وسعهم لتجريد الإسلام من كل ميزة و فضل، علاوة على تشويه حضارته بالتهم الملفقة والمزاعم الكاذبة والتزوير الفاجر.

ثالثا: الدوافع السياسية:

١- لاشك أن العامل السياسي لم يكن غائبا عن عقل جمهرة المستشرقين اليهود، وحلمهم في إقامة دولة تجمع شتاتهم وتلم أسرهم وتوحد أفرادهم، وهذا الحلم يسيطر

علي وجدان الكثير منهم، قبل مؤتمر «بال» في سويسرا عام ١٨٩٧ وبعده، وربما يرتد عند بعضهم الآخر إلي الزمن السحيق منذ دولة النبي سليمان التي أقامها في فلسطين، وظل هذا الحلم يحرك عقولهم بطريقة شعورية وغير شعورية، وجَدّ معظمهم في خدمة المشروع الصهيوني الذي نادي بإقامة دولة لليهود في فلسطين، ومن المؤكد أن بعضهم آمن بذلك إيمانا عميقا، وسعي بكل جهده وماله وعلمه لتحقيق ذلك، وتذليل الصعاب أمام هذا المشروع الاستيطاني، وتعبر كتابات برنارد لويس عن تحيزه الواضح للحركة الصهيونية، وتأييده الكامل للكيان الإسرائيلي الغاصب.

علي أننا نود أن ننبه أن بعض المستشرقين كان يري أن يستوطن اليهود في البلاد التي يقيمون فيها ويشاركون في بناء الدولة التي استقروا فيها ويندمجون مع الشعب الذي آواهم ومنهم؛ أبراهام جيجر من ألمانيا، كان من أنصار الدعوة إلي إدماج اليهود في التجمعات الأوربية التي يعيشون فيها ولذلك سعي إلي حذف كل ما يميز اليهود من سائر الأمم، وهاجم النزعة الصهيونية، وحذف من كتاب الصلوات كل إشارة إلي العودة إلي صهيون في فلسطين وعارض إقامة الصلاة باللغة العبرية.[(١)]

و قد ألمحنا آنفا إلى رأي اسبينوزا في مطالبته بتوطين اليهود في مسقط رأسهم، وقد عاضد وجهة نظره موسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦)الذي هاجم العنصرية اليهودية ورأي أنهم حبسوا أنفسهم داخل الجيتو الفكري وهو أبشع من الجيتو المادي الذي يقطنون داخله ويسكنون فيه بأجسامهم، ونادى بالتحرر المدني لليهود والفصل بين الدين والقومية.[(٢)]

وكذلك مونتاجو الوزير اليهودي البريطاني الذي قاوم المشروع الصهيوني ورأى أن من الخيانة للأوطان التي يعيشون فيها وإنكار للمعروف الهجرة إلى فلسطين وترك هذه الأوطان خلف ظهورهم لأن «جميع اليهود في شتى أنحاء العالم سيصبحون بعد إقامة

(١) موسوعة المستشرقين ص٢٢٢.
(٢) حسن ظاظا أبحاث في الفكر اليهودي ص ٩٩.

الوطن القومي في فلسطين، يهودا أجانب» [١].

ويؤكد باحث يهودي الفكرة ذاتها يقول: لم يكن من شأن الاتهام بتواطؤ الصهيونيين والإنجليز سوى وضع يهود مصر في موقف حرج للغاية؛ ذلك أن إقرارهم بحق إخوتهم في الديانة الإقامة في الأراضي المقدسة (فلسطين)يعني بفعل الواقع إقصاء أنفسهم عن الأمة المصرية.[٢]

أضف إلى كل ما سبق عارض العديد من المفكرين اليهود في أوربا المشروع الصهيوني معارضة عنيفة أمثال مكسيم رودنسون في كتابه «إسرائيل والعرب» إذ يقول: «إن الصهيونية وإن نجحت اليوم في إنشاء الدولة اليهودية فإن إقامتها تبقى على أسس غير سليمة؛ إن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد.» وهذا ما ذهب إليه أيضا كل من؛ ناتان وينستوك في كتابه «الصهيونية وإسرائيل» وإبراهام ليون والفريد ليلنتال [٣]. ونضيف إلى هؤلاء نورمن فنكلستين وهو كاتب يهودي يعيش في أمريكا، يكتب بإنصاف عن القضية الفلسطينية، هاجم هذا الكاتب سياسة إسرائيل تجاه حزب الله، وعدوانها المدمر على جنوب لبنان، وفضح جرائم إسرائيل تجاه الفلسطينيين وتدميرها لحياتهم، وختم كتابه بمقولة مأثورة عن أمه: الجريمة الوحيدة التي اقترفها الفلسطينيون أنهم ولدوا في فلسطين، ولكني لا أعتقد أن هذه جريمة.[٤]

وكثير من اليهود الذين استقروا في أوربا، رفضوا إغراءات دولة إسرائيل رفضا قاطعا، فحينما ذهب بن جوريون إلى الدانمرك (سنة ١٩٦٢) وأخذ يغري يهودها على الالتحاق بدولة إسرائيل، تصدى له رئيس الجالية اليهودية قائلا له بصراحة مطلقة: إننا نحن الدانمركيين لا نريد مكانا آخر نعيش فيه حياة أسعد من حياتنا هنا في الدانمرك؛ إننا

(١) أحمد سوسة : أبحاث في اليهودية ص ١٨٩.
(٢) تاريخ يهود النيل ص٩٧.
(٣) أحمد سوسة : أبحاث في اليهودية ص ١٨٣/ ١٨٤، أورد المسيري أسماء العديد من المفكرين اليهود المعارضون للحركة الصهونية وسياسة إسرائيل .(الموسوعة اليهوددية ج٦/ ٣٣٤ -٣٤٥).
(٤) صناعة الهولوكست ، ت، سماح إدريس ، دار الآداب ، بيروت ، ٢٠٠١، وأيضا رحلة أمريكي يهودي بحثا عن الحقيقة والعدالة، ت ، سماح إدريس ، دار الاداب ، بيروت ، ٢٠٠٨، ص ١٩١.

جزء أصيل من الشعب الدانمركي فنحن دانمركيون أولا ويهود ثانيا. [١]

٢- سخر كثير من المستشرقين أبحاثهم العلمية، لخدمة المشروع الصهيوني، وراحوا ينقبون في الآثار ويقلبون دفاتر التاريخ، ويركزوا على دور علماء اليهود الذين عاشوا في فلسطين، ويرسموا خريطة لها ويتحدثون عن تاريخها وحكامها وملوكها وأنبيائها وتضاريسها ومناخها والهجرات التي وصلت إليها واستقرت فيها وخرجت منها، مثل كتابات سلمون منك، وليون أري ماري وولفنسون في كتاباتهم عن مدن فلسطين، واهتمامهم بنشر تراث موسي بن ميمون وغيره من علماء اليهود.

ومنهم من كان يتعمد زيارة فلسطين، كأنه ذاهب إلى الحج المقدس، لكي يؤكد للدول الاستعمارية أن هذا وطنهم الذي أخرجوا منه، ومن واجبهم التاريخي أن يعاونوهم في العودة ثانية، كما فعل جولد تسيهر، ومنهم من كان يتخذ الحديث عن علماء اليهود، مثل موسي بن ميمون وابن كمونة ويهودا هاليفي كذريعة لإثبات حقهم التاريخي و السياسي في الأرض الموعودة، ورسالة إلى من يهمه الأمر من الدول الاستعمارية لكي ترى وتسمع، مثل كتابات ماكس مايرهوف، وباول كراوس و دافيد بانيت وولفنسون. على الرغم من أننا نعدهم علماء مسلمون؛ بمعنى أنهم عاشوا في ظل هذه الحضارة العربية الإسلامية الفتية الباسقة وتأثروا بعلومها وفنونها وآدابها وثقافتها ولغتها، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

٣ - تعاون كثير من المستشرقين مع الدول الاستعمارية بطريقة مباشرة، و قدموا خدماتهم لمن يدفع أكثر، ووضعوا بحوثهم العلمية، ودراستهم الواسعة للفقه الإسلامي و تاريخه وللحضارة العربية الإسلامية، لمساعدة المشروع الاستعماري وإحكامه السيطرة على الدول العربية، وإطالة عمره، نلمس ذلك في الخدمات التي قدمها مستشرقان كبيران مثل؛ دافيد سانتلانا، وجوستاف فايل.

ولاشك أن تعاون بعض المستشرقين مع الاستعمار شوه صورة الاستشراق تشويها واسعا، وأساء إلى دورهم في خدمة التراث العربي الإسلامي، وأدى إلى خصم الكثير من رصيدهم العلمي، وزعزع مفهوم الموضوعية الذي يتشدق به الغرب دائما.

---

(١) أبحاث في اليهودية ص ١٩١.

«إن الشرط الحاسم الذي تصطدم به ألوان المعرفة المنتجة في الغرب المعاصر هو أن تكون منزهة عن السياسة، بمعنى أن تكون علمية أكاديمية محايدة، تعلو على مستوى المعتقدات المذهبية الحزبية أو ضيقة الأفق».[١]

٤- يقول العلامة محمود شاكر: الاستعمار والاستشراق والتبشير(التنصير) «ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة، جميعهم يد واحدة؛ لأنهم إخوة أعيان، أبوهم واحد وأمهم واحدة ودينهم واحد وأهدافهم واحدة ووسائلهم واحدة.» [٢]

لاشك أن الشيخ شاكر من كبار العلماء ويعد واحدا من جيل العمالقة، ومن المنافحين عن اللغة العربية الغيورين عليها، ومن المنظرين للحضارة الإسلامية، يتميز بأسلوبه العربي الفصيح، وقدرته على سبك المفردات في ثوب قشيب واستخدام الغريب منها وسوق العبارات في سهولة ويسر وتطويعها أمام القارئ.

ومع تقديرنا لحماسته الدينية وموسوعته اللغوية والشرعية وشخصيته العلمية الجليلة، لكننا لا نتفق معه في هذا الحكم القاسي على المستشرقين قاطبة، فنحن لم ننكر سابقا عمل بعض المستشرقين (قضية جزئية)مستشارين للاستعمار وتقديم خدمات عظيمة له، ولا تعاونهم مع فلول المنصرين أو دخول طائفة منهم هذا الميدان.

بيد أن نضعهم في مربع واحد، وأنهم ينسلون من ثوب واحد، فيه ظلم بين لجمهرة كبيرة منهم وهبوا حياتهم للبحث العلمي ولم يعوزهم منهج الإنصاف، هذه نقطة، النقطة الثانية، أن الاستشراق اليهودي لم يدخل مجال التنصير بطبيعة الحال، ليس هذا فحسب بل نجد بعضهم قد تحول إلى المسيحية مثل دافيد مرجليوث (١٨٥٨- ١٩٤٠) [٣]، النقطة الثالثة التأليف الضخم الذي خلفوه في معظم المجالات، فضلا عن صبرهم المحمود في قراءة آلاف من المخطوطات وتنسيقها وتصحيحها وتحليل مضمونها ونشرها في حلة قشيبة، وثوب جذاب.

---

(١) إدوارد سعيد : الاستشراق ص ٥٤/ ٥٥

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٤٩

(٣) ترجمته في موسوعة المستشرقين ص ٥٤٦

وإذا كنا نطالب المستشرقون بإنصاف حضارتنا الزاهرة، فمن باب أولى أن نتحلى بالعدل و الحيدة والموضوعية.[١]

(١) يقول الشيخ شاكر: أكب عليها (المخطوطات)المستشرقون المجاهدون الصابرون، الذين هجروا دنيا الناس المائجة بكل زخرف ومتاع، وعكفوا بين جدران صامتة وأكداس من الأوراق المكتوبة بلسان غير لسان أقوامهم، يقضون سحابة النهار وزلفا من الليل يفرزونها ورقة ورقة، وسطرا سطرا وكلمة كلمة، بصبر لا ينفذ وعزيمة لا تكل، ويكابدون كل مشقة في الفهم والوقوف على أسرار المعاني المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربية أو غير العربية في كل علم ومعرفة وفن.(رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٥٤).

– نود أن نوضح وجهة نظرنا في كتاب الشيخ الجليل في نقاط مركزة:

١ – كتاب متميز من الناحية اللغوية، يظهر تمكنه من ناصية اللغة العربية، ويذكرنا بأسلوب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي.

٢ – يغلب على الكتاب الأسلوب الإنشائي العاطفي الهجومي، مع التعويل على المهارة اللغوية وتكرار المفردات العربية الفصيحة وأحيانا الغريبة، أكثر من الأفكار الواردة فيه أو القضايا المطروحة.

٣ – يهاجم المؤلف الاستشراق هجوما لا لين فيه ولا هوادة، مع إيراده الأدلة التي تظهر الرابطة العضوية بينه وبين الاستعمار والتنصير، وأن هدفه الأول والأخير، الدفاع عن المسيحية، وتحذير القارئ الأوربي من الإسلام ثم انتهاز الفرص لاحتلال أرضنا.قارن هذا الموقف مع موقف مالك بن نبي المنصف والموضوعي من حركة الاستشراق.(إنتاج المستشرقين ص ٤٢)

٤ – استعرض نشأة الاستشراق بالتفصيل مع الإطناب والتكرار، مع المسيحية المهزومة في الشمال والإسلام المنتصر في الجنوب، وفشل الحروب الصليبية، والتحول من المواجهة العسكرية إلى الالتفاف الثقافي والغزو الفكري،، وتقدم الدولة التركية التي حطمت آمال الرهبان والملوك، ووسعت رقعة الدولة الإسلامية.

٥ – فشل الاستشراق في دراسة الحضارة العربية الإسلامية فشلا ذريعا، لأسباب كثيرة أهمها عدم تمكنه من دراسة اللغة العربية واختلاف العقيدة وتباين الثقافة والملة.

٦– إن النهضة العربية بدأت وانطلقت في أرضنا العربية؛ بفضل جهود الجبرتي الكبير في مجال التاريخ، ومحمد بن عبد الوهاب في مجال العقيدة، والزبيدي في مجال اللغة العربية، والشوكاني في مجال الفقه، (لاحظ أن هؤلاء العلماء يدورون في المجال النظري ولا يوجد أحد فيهم له باع في مجال الاختراعات التى تكشف علاجا لمرض من الأمراض، أو خطة لتطوير الصناعة أو توسيع الرقعة الزراعية، أو اكتشاف من المكتشفات التي تنهض بحياتنا اليومية)، وليس مع حملة نابليون على مصر، لأنها حملة استعمارية قام بها نابليون بفضل خدمات المستشرقين الذين أمدوه بكل المعلومات، ووضعوا أمامه كل الخطط التي تسهل له التعامل مع المصريين شيوخا وعواما.

٧– لم يتعرض لأعمال المستشرقين، ولا جهودهم العلمية، ولم يشر لتحقيقهم المخطوطات أو ترجمة تراثنا، ولكنه طوال الصفحات، يحط من شانهم ويزري بجهودهم ويشكك في نواياهم وخبث وسائلهم وحقد قلوبهم. =

رابعا : الدوافع العلمية :

١ - لا أحد يستطيع أن ينكر أن من دوافع الاستشراق اليهودي، حب المعرفة والرغبة الجارفة في فهم جوانب الحضارة العربية الإسلامية، والتعرف على فكرها وفلسفتها ومنهجها وعقائدها وآدابها وفنونها وملامحها؛ فهي كتراث إنساني يحظى باحترام معظم مفكرين العالم، ومحبي العلم وأصحاب الفكر السليم وقادة الرأي في العالم.

ولا نشك أن جمهرة من المستشرقين كان يحدوهم الأمل في دراسة هذه الحضارة الإسلامية المذهلة التي بنت نفسها في سنوات معدودة، وانتشرت شرقا وغربا وبخاصة أن كثيرا من علمائهم شاركوا في بناء هذه الحضارة، واعتنق ديانتها رجال من اليهود والمسيحيين، ونطقوا بلغتها العربية التي أصبحت من أدواتهم المعرفية؛ فضلا عن التخاطب بها، وهذه قضية لا تحتاج إلى برهان، ليس هذا فحسب، بل كان عندهم غرام للتعرف علي سماتها ودراسة إنتاجها العقلي، وفكرها الفلسفي، وتذوق شعر شعرائها

= ٨- هجومه على د زكي نجيب محمود كان مجافيا لقواعد الأخلاق إذ رماه بالكذب وافترى عليه افتراء واضحا، وأزرى بفكره؛ وحقيقة القضية أن د/ زكي عرض للصراع الحضاري بين مشايخ الأزهر بما يمثلونه من علم ديني، يتمثل في التفسير والحديث والفقه، والحملة الفرنسية التي أتت بالمنهج العلمي وابتكاراته التي تجلت في المطبعة والقنابل والمدافع والمواد الكيماوية والتجارب العلمية، وهدفه من ذلك أن يظهر الفجوة الحضارية بين العرب وفرنسا، والفارق الهائل بين الوضعية العربية وأحوالنا في مصر وما وصل إليه العصر من تقدم تقني وابتكارات متعددة في معظم المجالات. ولم يسخر الرجل من علماء الأزهر، لكنه يطالب بما أسماه الجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ وقد بسط ذلك في مؤلفاته بسطا واسعا وشاملا.رحم الله شيخنا العلامة محمود شاكر وعفى عنه لحماسته ووطنيته وغيرته على مبادئ الإسلام ودفاعه عن اللغة العربية. ورحم الله أستاذنا زكي نجيب محمود لقيادته حركة التنوير طوال خمسين عاما، وما قدمه من جهود علمية لتحرير العقل العربي من قيده، ودعوته الصادقة إلى التعويل على مافي تراثنا من قيم حضارية، ولا ننسى نصيبنا من إنتاج العصر، وتقدمه التقني المذهل وأن نجمع بينهما في ضفيرة واحدة على حد تعبيره.

٩- أجحف في تقييم تجربة محمد على إجحافا واسعا، وركز فقط على حروبه مع الحركة الوهابية وهذا خطأ بلا شك، دون أن يشير إلى بنائه مصر الحديثة في المجالات التعليمية والعسكرية والصناعية والزراعية والطبية.وفي السياق نفسه هاجم رفاعة الطهطاوي هجوما شديدا، ورأى أنه صنيعة المستشرقين.!!.

وتأمل نثرها المملوء حكمة وبلاغتها التي تخلب اللب، وقراءة أدب الجاحظ بعقله الموسوعي وسخريته العريضة، وفلسفة أبي حيان التوحيدي وتمرده على الوزراء والأمراء ومئات غيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء.هذا من جهة؛

ومن جهة ثانية، يعد حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة، استعداد مركوز في الفطرة البشرية ويري بعض علماء النفس أنه يعد من الدوافع الفطرية وعلى رأسه مكدوجل (١٨٧١-١٩٣٨)، وقد أطلق عليه «غريزة حب الاستطلاع»، ومعنى ذلك أن من مجافاة الحقيقة أن نسلب الرغبة في المعرفة عند جمهرة المستشرقين اليهود، والميل الجارف لدراسة حضارة جديدة يتشوقون الإحاطة بمقوماتها و سماتها وأسباب نجاحها وتبوأها هذه المكانة المرموقة وسط الحضارات القديمة.(١)

ومن جهة ثالثة؛ لا يمكن أن ننزع جانب الخير والعدل والمحبة المتغلغل في أعماق فطرة الإنسان، والذي يتفجر داخله، لأنه ينتمي لجنس الإنسانية، وأغلبية الفلاسفة يؤكدون على خيرية الإنسان ونقاء فطرته، إذا استثنينا رأي توماس هوبز (١٦٧٩) وآرتور شوبنهاور(١٨٦٠)، فعنصر الروح مكون من مكونات الإنسان، والذي يعمق فيه نوازع القيم الأخلاقية، ويقلل من رغبات الحواس وسطوة المادة، ومن الضلال البين إدعاء فرويد (١٨٥٦ -١٩٣٩) أن دافع العدوان والكراهية من الدوافع الفطرية، فقد أثبت العلماء أنه دافع مكتسب من البيئة، والذي نريد أن ننتهي إليه أننا لا يمكن أن نلغي نوازع الخير والصدق والتعاطف ومبادئ الأخلاق من كافة المستشرقين اليهود، فعلينا أن نحسن الظن بخيرية الإنسان ونقاء فطرته وإخلاصه حتى يثبت لنا بالدليل القاطع عكس ذلك.

ومن جهة رابعة علينا أن نفرق بين مشاعرنا الذاتية، واتجاهاتنا الخاصة، وعواطفنا المشحونة بالكراهية العميقة تجاه اليهود الصهاينة لأسباب معروفة لنا جميعا، والدراسة

(١) نفى د.على النملة، وهو باحث جاد ومتخصص في الدراسات الاستشراقية وله باع وأي باع في هذا المجال، أن يكون الدافع العلمي كان وراء الاستشراق اليهودي ودراساتهم التي دارت حول الإسلام، ورأى أنهم كانوا يسعون إلى تحقيق أهداف استعمارية وسياسية وتجارية، دون العلمية (الاستشراق في الأدبيات العربية، ص ٨٩)، في حين أنه قرر بعد ذلك: أن الاستشراق اليهودي ليس أقل إنصافا من الاستشراق المسيحي.(ص ٩٠)

المنهجية التي هي محكومة بأسس المنهج العلمي وضمير الإنسان النقي، وخيرية الإنسان ودواعي الإنصاف.

نعم لا يجب الخلط بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي، ولا ننساق مع تيار الكراهية المتجزر في قلوبنا وضمائرنا، وفي صحونا ونومنا، وفي سكوننا وحركتنا، وفي الشارع العربي للكيان الصهيوني؛ ونناقش القضية مناقشة هادئة علمية، متجردة من كافة الأهواء الشخصية، بعيدة عن الانفعالات، وعن عاطفة الحب والكراهية.

في ضوء ما ذكرنا، إذا استعرضنا ما قام به صفوة المستشرقين اليهود من ترجمة تراثنا العربي الإسلامي إلى اللغات الأجنبية، وتحقيق المخطوطات ونشرها نشرة علمية بمقدمات ضافية تشرح أبعاد القضايا التي تناولوها، والتأليف الموسوعي الضخم الذي نهضوا به، كل هذا يفضي بنا إلى الاعتراف بأن الدافع العلمي كان وراء خوضهم هذا الميدان الشيق الفسيح.

يقول مصطفى السباعي (ت١٩٦٤) وهو متحامل إلى حد ما على الحركة الاستشراقية: «من المستشرقين نفر قليل جدا أقبلوا علي الاستشراق بدافع من حب الإطلاع علي حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها، وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأ في فهم الإسلام وتراثه».[(١)]

ويقول مالك بن نبي (ت١٩٧٣): «إن إنتاج المستشرقين...لا يجوز نكران قيمته العلمية، بل نراه أحيانا يستحق التقدير لما يتسم – في بعض أصنافه مثل ماخلفه سيديو أو جوستاف لوبون أو آسين بلاسيوس – بالإضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء.» [(٢)]

ويقول إدوارد سعيد (ت ٢٠٠٣): حقق الاستشراق نتائج عظيمة في حدود جهوده العلمية البحتة، إذ نجح في إيجاد بعض العلماء في القرن التاسع عشر، وزاد من عدد اللغات التي تُدرّس في الغرب، ومن كم المخطوطات التي حرروها وترجموها وشرحوها،

(١) السباعي: الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩ ص ٢٤، ٢٥.
(٢) إنتاج المستشرقين ص ٤٢

واستطاع في حالات كثيرة إعداد دارسين أوربيين متعاطفين مع الشرق.[١]

وفي السياق نفسه يقول أحد الباحثين المدققين الموضوعيين: إن العديد من المستشرقين وخاصة اليهود؛ قد تعرفوا على تاريخ العرب والإسلام وتراثه وولعوا به وقرأوه من خلال دراستهم للترجمات العربية للأصول الفلسفية والعقائدية العبرية القديمة سواء في المشرق العربي أو الأندلس.[٢]

إن الإنتاج العلمي الغزير الذي تركه لنا جمهرة المستشرقين، وراءه جهد كبير وعمل منظم ومنهج محكم، ومعظم الذين خلفوا لنا هذا الكم من المؤكد أن الدافع العلمي كان يحدو خطواتهم كما أشرنا سابقا، وأن هذا المستشرق الذي انزوى في مكتبة نائية بعيدا عن الأضواء وعكف سنوات يقرأ في هذه المخطوطة ينفض التراب عنها، ويفك ألغازها، ويفسر نصوصها ويشرح مضمونها، ويعاني من غموض مفرداتها، ويكافح في استيعاب بلاغة أسلوبها، يحب هذا العمل ويعشق هذا العلم الذي تخصص في دراسته أو الفن الذي أمضى حياته يؤلف في قضاياه، ويثري في مناهجه.

ونستطيع أن نسوق العشرات من الأمثلة لهؤلاء المستشرقين الذين قدموا خدمات علمية جليلة لتراث الحضارة العربية الإسلامية؛ فقد نشر جولد تسيهر كتاب المعمرين العرب لأبي حاتم السجستاني، وكتاب المستظهري للغزالي، علاوة على كتابه الشهير مذاهب التفسير الإسلامي، والعقيدة والشريعة، على الرغم من تحفظنا على كثير من القضايا التي أثارها في هذين الكتابين ورفضنا معظم المقولات التي طرحها والأكاذيب التي نشرها، والنتائج التي أعلنها.

وحقق هورفتز ونشر جزأين من «طبقات ابن سعد»، و«هاشميات الكميت»، وحقق جاكوب ونشر كتاب الفصيح لثعلب، وديوان القطامي.

وحقق هرتفج ونشر؛ ديوان النابغة الذبياني، و«الكتاب» لسيبويه، والمواعظ والاعتبار لأسامة بن منقذ، والفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي.

---

(١) الاستشراق ص ١٧٤

(٢) فروق فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر، عمان، ١٩٩٨، ص٣٨

وحقق ماكس مايرهوف ونشر عشر مقالات في العين لحنين بن اسحق، وخمس رسائل لابن بطلان البغدادي، ولابن رضوان المصري. وغير ذلك كثير.

أما في مجال التأليف، فقد أشرنا سابقا في أثناء دراسة الشخصيات وهذه إشارة سريعة لمؤلفاتهم، ألف سلمون منك كتابه «أمشاج في الفلسفة الإسلامية».

ووضع جول أوبرمن كتابين مهمين في الفلسفة الإسلامية هما؛ مشكلة العلية عند العرب، والنزعة الذاتية الفلسفية والدينية عند الغزالي.

وكتب برنشفج مقالات علمية عن قواعد الفقه الإسلامي، وعن الآراء الكلامية عند المعتزلة والأشاعرة.، وموقف علماء المسلمين من المنطق اليوناني.

وتخصص جوتشلك في الكتابة عن تاريخ مصر في العصر الوسيط، وكرس جهوده عن الملك الكامل وعصره، وعن شجر الدر.

أما بول كراوس، فقد وضع مؤلفات غزيرة تدور حول العلماء العرب.

وكذلك أبحاث ماكس مايرهوف عن الطب والصيدلة والنبات عند العرب.

نستنتج مما سبق أن جمهرة المستشرقين حينما خاضوا هذا الميدان، كان عندهم رغبة عارمة ودافع علمي غلاب لاستكشاف الأبعاد الدينية و الفلسفية والأدبية والفنية لهذه الحضارة العربية العظيمة التي أشرق نورها علي العالم أجمع.

خامسا: الدوافع التاريخية:

١- ينتسب اليهود [(١)] إلى «يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام) الذي ورد اسمه في القرآن باسم «إسرائيل»؛ أي عبد الله ومن نسله ظهرت أمة بني إسرائيل؛ وقد

(١) يقال اسم اليهود؛ جاء من توبتهم عن عبادة العجل، (إنا هدنا إليك)أي تبنا ورجعنا، ويقال نسبة إلى يهوذا أحد أبناء سيدنا يعقوب.(الطنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن ص ٣: ٨).وننبه أن إدعاء اليهود بأن تاريخهم يبدأ بهجرتهم من العراق مع سيدنا إبراهيم إدعاء مزيف، لا يستند إلى أي سند تاريخي، كذلك زعمهم بأن يهود فلسطين مرتبطون عنصريا باليهود العرب، وأنهم نزحوا إلى جزيرة العرب في أعقاب إجلائهم من فلسطين في عهد الرومان لربط صلتهم بالعرب ليس له أي نصيب من الصحة. (أحمد سوسة: أبحاث في اليهودية ص١٣٧)

هاجر يعقوب إلى مصر ومعه أولاده بعد أن أصبح يوسف وزيرا للخزانة، وأرسل في طلبهم واستقروا في مصر لكنهم عاشوا في عزلة تامة منطويين على أنفسهم، رافضين التعاون مع السكان الأصليين، وبعد أن احتل الهكسوس مصر مد اليهود يد التعاون معهم، مما أوغر صدور الأهالي، ثم استطاع أحمس طرد الهكسوس، وحينما تولى رمسيس الثاني بدأت المتاعب الحقيقية لليهود، إذ شرد بهم وذبح أبناءهم واستحيي نساءهم وأنزل بهم ألوانا من العذاب، أفاض القرآن في تصويره وعرضه عرضا حيا مؤثرا.

ومن رحمة الله بهم أرسل إليهم موسى لكي ينقذهم من ذل الأسر ومهانة الاستعباد، وتحريرهم من عذاب فرعون، وفي الوقت نفسه إرشادهم إلى طريق الحق والخير والنهج الرشيد، وتنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبينه وبين الله، وشرح معالم الطريق المستقيم، ورسم خريطة واضحة تحدد أبعاد السلوك الأخلاقي؛ من خلال الشرائع التي حملوها معهم، والمبادئ القويمة التي بشروا بها، والقيم الخلقية التي بثوها في نفوسهم وجاهدوا على غرسها في ضمائرهم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۞ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة ٤٧- ٥١].

لكن اليهود عصوا موسى في حياته وبعد مماته، وعادوا إلى سيرتهم الأولى من عبادة العجل وجمع المال والاستخذاء أمام أعدائهم وخذلان أنبيائهم.

ويرسم بعض المؤرخين صورة قاتمة لليهود بأنهم عرفوا منذ قرون؛ أفاقين مغيرين سفاكين للدماء مندفعين في الخصام الوحشي، فإذا بلغ الجهد منهم مداه، ركنوا إلى الخيال التافه تائهة أبصارهم في الفضاء، كسالي عطل من الفكر كأنعامهم، علاوة على أن من أهم

معالم شخصيتهم؛ النفاق والجبن والبخل والطمع.[١]

ويفسر العلماء سبب كثرة إرسال الأنبياء إلي بني إسرائيل، بكثرة أمراضهم النفسية و ضمائرهم الخربة وسلوكهم المعوج، وعصيانهم أوامر الأنبياء وتمردهم على نصائحهم، ليس هذا فحسب بل ورفضهم حضور الأنبياء في الواقع والتاريخ، ومؤامرتهم الخفية للإيقاع بهم وإلصاق التهم بهم ومحاولة قتلهم.

ويمثلون لذلك بالشخص المريض الذي تكالبت عليه الأمراض، فيسعى جاهدا للذهاب إلى أكثر من طبيب للبحث عن سبل العلاج الناجع والدواء الشافي.

٢- يوجد شبه إجماع عند معظم المؤرخين أن اليهود طائفة بلا هوية محددة أو تاريخ واضح، ولكنهم مجموعة من القبائل المتناحرة، والطوائف المتصارعة «لم يجاوزوا أطوار الحضارة السفلي»، التي لا تكاد تُميز من طور الوحشية، إذ كانوا بدوا رحل لا أثر للثقافة في حياتهم، وعندما عزموا على الاستقرار في فلسطين، بعد أن استطاع يوشع بن نون أن يحتل بعض مدن فلسطين؛ وجدوا أنفسهم في مواجهة أمم متمدنة قوية منذ قرون، وحينما أرادوا أن يقتبسوا بعض معالمهم، فعلوا مثل باقي الأجناس الدنيا، التي لا تقتبس من الأمم المتحضرة سوي أسوأ عاداتها و أخس ما في حضارتها.[٢]

هذه القبائل عاشت مشردة متنقلة من منطقة إلى منطقة ثانية، وكلما استقرت في مكان، وعاشت فترة من الزمن، هاجرت إلى مكان آخر، ومن ثم «لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، واليهود لم يأتوا بأية مساعدة مهما صغرت في شيد المعارف البشرية، واليهود لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم المتوحشة التي ليس لها تاريخ، وظلوا حتى آخر مرحلة من تاريخهم في أدني درجة من الحضارة قريبين من دور التوحش الخالص».[٣] وقد انحصرت مواهبهم في تربية البهائم وفلاحة الأرض، علاوة على التجارة.

---

(١) جوستاف لوبون: اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، شركة نوابغ الفكر، القاهرة ٢٠٠٨، / ص٤- ٨.

(٢) لوبون: تاريخ اليهود ص ١٥.

(٣) المصدر السابق.

٣- توفي يوشع في حدود (١١٥٧ق.م) وتفرق بنو إسرائيل، إلى قبائل متناحرة، واقتبسوا من الكنعانيين سكان فلسطين كثير من الأفكار الوثنية، على أن هذا العهد شهد مرحلة من الهدوء و الاستقرار، ومن ثم انتقلوا من مرحلة الرعي والتنقل ونصب الخيام إلى الزراعة التي من أهم خصائصها الاستقرار والإقامة في شكل قرى ومدن وهذا يعدد طورا متقدما في الجانب الحضاري إذا واكبه نوع من التقدم الفكري، ومع هذا لم يتوقف الصراع بينهم وبين الكنعانيين أصحاب البلاد الأصليين.

٤- تمنى بني إسرائيل من أحد أنبيائهم أن يرسل الله لهم ملكا يقودهم إلى حرب الكنعانيين، فاستجاب الله واختار لهم طالوت ملكا، الذي قادهم بعد جدل شديد و تقاعس واضح وتخاذل له سوابق في التاريخ أن يقودهم إلى الانتصار على الكنعانيين ويقتل جالوت، وفي هذه الحروب المستمرة برز اسم داود قائدا لجيش إسرائيل؛ وقد أشار القرآن إلى هذه المرحلة التاريخية بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة ٢٤٦- ٢٥١].

وتعد فترة حكم داود من أخصب الفترات التاريخية، وتولى بعد ابنه النبي سليمان الذي حقق آمال الشعب اليهودي في الاستقرار والرخاء واتساع ملكه علاوة على تشييده الهيكل، وبعد وفاته انقسمت مملكته؛ إلى مملكتين إحداهما في الشمال اسمها إسرائيل، وأخري في الجنوب اسمها يهوذا. وقد دخلت المملكتين في حروب طويلة فيما بينهما فضلا عن العودة إلى الوثنية الأولى وعبادة الأوثان، والارتكاس في الرذائل والموبقات.في هذه الفترة تقدم سرجون الأشوري عام (٧١٢ق.م)صوب مملكة إسرائيل الشمالية وحاصر عاصمتها «السامرة» ونقل آلاف من اليهود إلى العراق.(١)

وقد تعرضت مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم إلى ضربة مماثلة إذ «دمر نبوخذ نصر ملك بابل القوي أورشليم في عام (٥٨٦ ق.م) فجعل عاليها سافلها وهدم هيكلها وأسر آلاف اليهود إلى بابل. (٢)

ولا جرم أن يكون هذا التدمير عقابا من الله على أعمالهم وسوء طويتهم ومسلكهم البائس، ثم توالت على فلسطين دول مختلفة من الفرس واليونان والرومان وهي الدول الكبرى آنذاك، وانتهى الأمر بقيام الامبراطور الروماني تيطس عام (٧٠ م) بتدمير مدينة القدس وتدمير الهيكل مرة ثانية.

ويؤكد أغلبية المؤرخين أن القبائل اليهودية كانت طوال تاريخها على جانب كبير من الجبن العميق، (٣) وتميز سلوكهم المشين في كل مكان بالطمع الجارف الذي يسم سلوكهم، وحبهم الفائق للمال، وانغماسهم في الربا، ومحاولاتهم الدائمة في السيطرة علي مقدرات أي دولة يحلون فيها، ونهب ثرواتها» وفق غرائزهم التجارية القوية في جمع الثروات «علي حد تعبير جوستاف لوبون، واستنزاف اقتصادها وتخريب مواردها، يوقعهم في كثير من المصائب، ويخلق لهم مشاكل لا قبل لهم بها ومن ثم تهب الحكومة والمواطنين يطالبون بطرد هؤلاء الأجانب وتجريدهم من ثرواتهم التي نهبوها من عرق

(١) لوبون كتاريخ اليهود ص٣٥.
(٢) لوبون: تاريخ اليهود ص ٣٦.
(٣) لوبون: تاريخ اليهود ص٣٦.

obeikandl.com

المواطنين، والاستقراء التاريخي شاهد على ذلك.

٥- هذا التاريخ الأسود بكل ما يحمله من موبقات وخداع ومصائب وآلام، دفع صفوة من المستشرقين أن يندفعوا في هذا الميدان لتحقيق الآتي:

أ- تطهير أنفسهم من أدران الماضي، والتحرر من وزر الخطيئة التي ارتكبها أسلافهم في حق الشعوب التي نزلوا بساحتها فقابلوا الإحسان بالإساءة والمعروف بالنكران.

ب- تبرير سلوكيات الجاليات اليهودية المشينة عبر التاريخ في الأماكن التي حلوا بها، والدفاع عن مسلكهم من خلال تضخيم المظالم التي لحقت بهم، والمصائب التي سقطت على رؤوسهم، وإظهار أنهم ظلموا من الأمم الأخرى الذين استغاثوا بهم أو عاشوا في حمايتهم.

وأبرز مثال على ذلك هجومهم على الرسول ﷺ وإدعاؤهم أن اليهود هم الذين رحبوا به وآووه في مدينتهم ونصروه، فلما اشتدت شوكته انقلب عليهم وشرد بهم وطردهم شر طرده من مدينتهم وسلب أموالهم وقتل زعمائهم.

جـ- بعث تاريخ وجود الجماعات اليهودية في فلسطين العربية، و تأكيد وجودهم التاريخي فيها، وذكر تاريخ دولة يهودا في الشمال ودولة إسرائيل في الجنوب، وما تعرضوا له من التنكيل والقتل وهدم هيكلهم و الإشادة بجهود ملوكهم ورؤسائهم في مقاومة العسف الذي نزل بهم، وبالجملة إحياء تاريخ اليهود القديم في هذه المنطقة وبعث تراثهم بما يتضمنه من جوانب دينية وأبعاد فكرية و عادات وتقاليد.

نلحظ ذلك في دراسات اشتينشنيدر التي دارت حول علماء اليهود وإنتاجهم إذ قام بفهرسة المخطوطات العبرية ويقال أنه جمع منها ألف وأربعمائة عنوان، ثم فهرسة المخطوطات المتعلقة بالمترجمين اليهود في العصر الوسيط، كذلك ألف كتابا شاملا حول ما كتبه علماء اليهود بالعربية، بسط فيه أسماء كافة المؤلفين اليهود مع ترجمة وافية عن حياتهم ومؤلفاتهم، ورصد المراجع التي استند إليها، وباقي مؤلفاته لا تخرج عن هذا الإطار.

ورحلات ادوارد جلازر إلي اليمن واكتشافاته النقوش القديمة تصب في إحياء

التاريخ اليهودي القديم وتأكيد تواجدهم التاريخي في بلاد العرب.

وفي هذا الاتجاه قام جوزيف هاليفي برحلاته إلى اليمن لإثبات الحضور اليهودي وتواجدهم منذ أيام النبي سليمان، وبحوثه أيضا عن يهود الفلاشا، علاوة على أنه كان من الصهيونيين المتعصبين لإنشاء الكيان الصهيوني.

وكانت كتابات دافيد بانت تدور في هذا الفلك؛ فألف حول ما كتبه علماء اليهود باللغة العربية، ودراساته الموسعة لوثائق «جنيزة» في مصر القديمة.وشاركه في ذلك أيضا شالوم جويتاين، الذي ركز دراساته حول تراث يهود اليمن، وتاريخ اليهود في مصر والشام. وكذلك تنحو مؤلفات هاري ولفسون وإسرائيل ولفنسون وهرتفج هرشفلد، هذا المنحى، وتخوض فيما خاض فيه أصحابهم.

ومعظم مؤلفات سلمون مونك تركز على علماء اليهود وعطائهم الفلسفي، أضف إلى ذلك أفرد كتابا مستقلا عن «فلسطين» يستعرض فيه تاريخ وجود اليهود فيها منذ دخول يوشع وجنوده بعد موت سيدنا موسى، ويتعرض للنكبات التي تعرضوا إليها من البابليين والرومان، حتى الوصول إلى منتصف القرن التاسع عشر.علاوة على كتاباته عن موسى بن ميمون ونشره لكتابه «دلالة الحائرين».

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن معظم المستشرقين اليهود تناولوا سيرة هذا الفيلسوف، وكل منهم تناول جانبا من تفكيره؛ الدينى والطبي والفلسفي.

موجز القول إن المستشرقين اليهود لم يغب عن بالهم أبدا استدعاء تاريخهم القديم ونفض التراب عنه وبسطه أمام الملأ ونفخ الروح فيه، والتأكيد المستمر على مزاعمهم الباطلة في حقهم التاريخي في أرض فلسطين.[(١)]

سادسا: الدوافع المادية:

١- اشتهر اليهود بحبهم للمال وتجارتهم في الذهب والفضة والسعي لإنشاء البنوك والمساهمة فيها، ومهارتهم في تكديس الثروات، ومحاولة الحصول عليها بكافة الطرق

(١) أحمد سوسة: أبحاث في اليهودية والصهيونية، ص١٠٥- ١٣٧.

obeikandi.com

المشروعة وغير المشروعة؛ وقد مثل ميدان الاستشراق بابا واسعا للرزق، ومصدرا ثابتا للحصول على المال، وأحيانا تحقيق بعض الثروات؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ كان المستشرق يحصل على معونة مالية لتغطية نفقات السفر، ربما من إحدى الجمعيات الآسيوية، أو من صندوق مخصص للكشوف الجغرافية أو منحة حكومية، كما يعني نشر أعماله في صورة معتمدة.(١)

في ضوء ما سبق؛ اندفع عدد كبير منهم بطرق بابه والدخول فيه وبذل كل الجهد لتحقيق ذاته والوصول إلى بغيته.

٢- لا جرم أن اتجه إلى مجال الاستشراق العشرات منهم واتخاذها مهنة مثل مهنة الطب والهندسة أو التجارة أو الزراعة، ووظيفة تدر عليه دخلا لا بأس به، وتوفر له متطلبات الحياة اليومية؛ فالمستشرق أولا وأخيرا إنسان يعول نفسه ويأمل أن يكُون أسرة، وهو مطالب بتأمين الحد الأدنى لمستوى المعيشة لكي يواجه ضرورات الحياة اليومية، وحاجياتها التي لا تنتهي.وحاجة من عاش لا تنقضي، كما يقول الشاعر.

٣- لمس كافة المستشرقين أن هذا المجال يدر دخلا طيبا، ومن يبتسم له الحظ ويعمل في البحث عن الآثار والنقوش والحصول على المخطوطات، مثل ادوارد جلازر وليو ماري فربما يصبح من الأثرياء ويكون ثروة لا بأس بها، ومنهم من كان يتعلم وعينه ناظرة إلى الهجرة إلى فلسطين إبان سطوع نجم الصهيونية وإغراءاتها لجذب اليهود إلى أرض الميعاد وتقديم كل التسهيلات لتوطينهم وفتح أبواب الرزق للعمل في المؤسسات التعليمية؛ مثل دافيد بانت، ومارتن بلسنر، وشالوم جويتاين، وليوأري ماري.

ومنهم من كان حريصا على الالتحاق بالعمل في السفارات الأجنبية ووضع خدماته العلمية لمن يدفع له أكثر من المستعمرين وغير المستعمرين وتقديم مشورته الفقهية أو العلمية لمن يطلب منه سواء؛ كما رأينا عند دافيد سانتلانا.

ومنهم من كان طموحه أكبر وهو السعي للعمل في الجامعات العربية أو الأمريكية،

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٣٠٥.

إذ يتمتع بالراتب المجز والمكانة الاجتماعية المميزة في السلم الاجتماعي، وقد انتدبت الجامعة المصرية عددا كبيرا من المستشرقين اليهود، وذكرنا سابقا أنهم كانوا يحصلون على رواتب عالية جدا تمثل ثروة قومية بحساب عصرهم؛ مثل باول كراوس وماكس ماير هوف، وإسرائيل ولفنسون، فضلا عن الذين هاجروا إلى أمريكا ووجدوا مندوحة في جامعاتها الرحيبة وموئلا أمينا في قاعاتها الفسيحة. نستنتج مما سبق أن العامل المادي لم يكن خافيا على المستشرقين اليهود الراغبين في اقتحام باب الاستشراق، بل كانوا يدرسون ويبذلون الجهد في الحصول على الشهادة وعينهم تخترق ما وراء الحجب تنظر إلى أبواب الرزق المفتحة الأبواب.

يعلل أحد الباحثين دخول اليهود ميدان الاستشراق ويكشف عن دوافعهم بقوله: «الظاهر أنهم أقبلوا علي الاستشراق لأسباب دينية، وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهود علي الإسلام بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية: فكرة أولا ثم دولة ثانيا»[(١)].

– و يقول محمود زقزوق وهو يعلل سبب إقبال اليهود علي ولوج باب الاستشراق: إن من الصعب الحصول علي إجابة صريحة عن هذه النقطة، فقد أغفلت المراجع الحديث عن هذا الجانب.ونعتقد أن السبب في ذلك يرجع إلي أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصرا أساسيا في إطار الحركة الاستشراقية الأوربية المسيحية فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوربي لا بوصفهم اليهودي.وبذلك كسبوا مرتين: أولا فرض أنفسهم علي الحركة الاستشراقية كلها، وثانيا تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام، وهي أهداف تلتقي مع أهداف أغلبية المستشرقين المسيحيين.[(٢)]

***

(١) محمد البهي: مصدر سابق ص٥٣٤.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف بمصر، ص٥٢/ ٥٣، وأيضا الإسلام والغرب ص١٨-١٩.